رحلة الشتاء والصيف

تأليف

محمد بن عبد الله الحسيني الموسوي

الشهير بـ (كبريت)

١٠١٢ – ١٠٧٠ هـ

حققها وقدمها وفهرسها

الأستاذ

محمد سعيد الطنطاوي

هذه الطبعة
على نفقة الشيخ محمد نصيف وشركاه

الطبعة الاولى

القاهرة ١٢٩٣ هـ

الطبعة الثانية

بيروت ١٣٨٥ هـ

المكتب الاسلامي للطباعة والنشر
لصاحبه
حمد زهير الشاويش
دمشق ، الحلبوني ص . ب ٨٠٠ هاتف ١١٦٣٧ برقيا : اسلامي
بيروت : ص . ب ٣٧٧١ هاتف ٢٥٠٠٦٨

مَطابع المكتب الإسلامي

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي قال في محكم الكتاب: (هَل يستوي الذين يعلمونَ والذين لا يعلمون) ؟ وقال: (ومَن يؤتَ الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً) . وصلى الله على نبيه الكريم الذي قال: «خيركم مَن تَعَلّم العلم وعلّمه» وقال: «إن من الشعر حكمة و إن من البيان لسحرا» .

أما بعد : فإن المرء لا تكون قيمته إلا بحسب علمه وعقله وعمله، وكذلك الأمة، لايهم عدد أفرادها وسعة زراعتها وارتفاع مستواها الاقتصادي، بقدر مايهم مالديها من ثقافة وفكر وإبداع، وإذا كانت قوة الأمم تقدّر بذاك، فإن حضارتها تقاس بهذا ، وهذا سبب ذاك، وما وصلنا إلى ما ألنا إليه من ضعف وفقر وذلة وتأخر، إلا آن تقلص حضارتنا وهزالها وانحطاطها. ونلاحظ — كما لاحظ أعداؤنا قبلنا — الانحدار السريع الذي هوت فيه الثقافة العامة للفرد في بلادنا، إن بسبب تحكم المادة على قلبه وعقله، فلا يندفع إلا بتأثيرها، ولا ينظر إلا بمنظارها، ولا يستعمل في أحكامه إلا مقاييسها . أو بسبب انحلاله الخلقي ، وانسياقه وراء اشباع أخس أحاسيسه فتستأثر هذه بجلّ وقته، بعد أن سيطرت على عقله واهتمامه، فلا يبقى بعد ذلك متسع لغيرها .

لذلك نرى أن ازدياد عدد المدارس والجامعات، والارتفاع المخيف في ميزانياتها، والتدفق الهائل من الشباب عليها، كل هذا نراه مقترناً، بازدياد الجهل وانتشار السطحية . . التي لا يكابر فيها إلا مكابر ! وإلا فهذه الجامعات تقوم في بلادنا منذ عشرات السنين ، وقد تخرج منها مئات الألوف في مختلف الفروع والاختصاصات . . أطباء وصيادلة ومهندسين وحقوقيين وفيزيائيين وكيميائيين وحملة إجازات «الليسانس» و «الدكتوراه» في الآداب . . فكم عالم لدينا من هؤلاء ؟ لا أقصد حامل الشهادة وشاغل المهنة أو الوظيفة، فأي غلام يبقى فترة لدى حداد أو نجار . . يتاح له بعد مران كاف، أن يستقل بنفسه ويعيد في عمله ماتعلّمه عند معلمه . ولا فرق لدي كبير بين هذا الاجير الذي أصبح معلماً ، وبين الطبيب الماهر الذي ينفّذ مادرسه في كلية الطب، والمحامي الشهير الذي يعدّ دفاعه على نمط من يعجب بهم من المحامين ، والأديب الذي يصف الكلام ، والشاعر الذي يمجّ النظم، والمهندس الذي يجتر ماتلقّن . . كلّ هذا كالاسطوانة، أو كالشريط المسجل الذي يعيد بأمانة — ما ألقي عليه !

إنما أعني الأفراد الذين «أبدعوا» في حقل من الحقول، كما يفعل بعض أولئك هناك . . في الغرب ! يطّلع الواحد منهم على ماقدّمه غيره قبله، ثم يحاول أن يضيف إليـــــه .

فكم لدينا من طبيب قدم شيئاً جديداً يتّبع في الطب، يدرس للطلاب، ويستخدم في ميدان الجراحة ؟ وأين هو المهندس الذي أحدث انقلاباً في نمط البناء أو الشوارع والجسور ؟ وأين اختفى الأدباء البلغاء الذين يخططون للأمة و «يرفعون» مستواها ؟ وماذا حلّ بالخطباء الذين يتلاعبون بالأفئدة والشعور ؟ وكيف نعثر على الشعراء الذين يغيرون بشعرهم نمط الحياة ، ويردد أبياتهم الناس في الخلوات ؟ .

إن من الشجاعة أن نواجه الحقيقة كما هي، ومن الحقيقة التي لا يسعنا أن نكابر فيها، أن الثقافة في خطر، وأن معظم شبابنا وأفراد أمتنا — رغم زيف البهارج

ولعلة التهريج — على درجة من التفاهة والخواء . . والمدارس التي يصرف عليها الجزء الوفير من أموال الأمة، أصبحت ضغثاً على إبّالة، فهي تبتلع هذه الميزانية الهائلة لتكون فأساً يساهم في تهديم الفكر والثقافة والأخلاق، وماتزيد البلاد إلا بـــلاءً .

وأياً كانت الوسائل لإصلاح هذه المدارس ، ومهما تكن الطرق في علاج هذا الخطر ، فان الوسيلة العامة للثقافة العامة هي الكتب ، لايقوم سواها مقامها ، ولا يغني عنها غيرها . لا بدّ من كتب نافعة سليمة مجدية ، تصلح لكل الأغراض ، وتفي بكل الجوانب ، وتلائم جميع المستويات ، للكبار والصغار ، والرجال والنساء ، والطلاب والعمال ، والعامة والعلمـــاء .

ومازلت أذكر كتابين قرأتهما وأنا بعد طفل ، كان لهما أثر بعيد في نفسي وثقافتي وحياتي .. «سيرة عنترة بن شداد» ، و«فتوح الشام» للواقدي ، قصتان ، ولكن روح الجرأة والاقدام ، والرجولة والشجاعة ، التي تقطر منهما ليست شيئاً هيناً لا سيما لغلام فتيّ ، بل إن كثيراً من معرفتي برجال الجاهلية وأبطـــال ماقبل الإسلام ، كزيد الخير ، وعمرو بن معديكرب رضي الله عنهما . وعامر بن الطفيل . ودريد بن الصمّة لعنهما الله ، وعديد من الوقائع كخروب داحس والغبراء ، وشعب جبلة ، ويوم ذي قار ، ويوم حليمة والمناذرة والغساسنة . . إنما كانت من سيرة عنترة ، وكذلك فكثير مما عرفته عن الصحابة وبطولاتهم وفتوحاتهم إنما ابتدأت بقراءتي لفتوح الشام !

وقد أدركت زمناً ، كان فيه كثير من الشباب يعكفون على كتب العلم ويدرسون على العلماء ، حتى إذا أرهقهم الدرس ، وحلّ بهم التعب ، استراحوا بتسلية مع كتب من نمط «العقد الفريد» و «زهر الآداب» و «الأغاني» ! وكثير من العامة من كان يطالع في «حياة الحيوان» و«المستطرف» و«الكشكول» و«المخلاة» وأمثالها . . يجد فيها التسلية والراحة ، ولكنه يجد إلى جانب اللذة والاسترواح ، الحكمة والشعر وأخبار الناس ورجال السلف وأحداث التاريخ . .

وهذا الكتاب الذي بين يديك من هذا النمط يصلح للعلماء ويسهل على العامة ، يستسيغه ابن الخامسة عشرة ، ويحتاج إليه خريج الجامعة .

ومؤلف الكتاب لا يتصنع ولا يتنمّق، كما أنه لا يسفّ فيه ولا يخلّ، وإنما ينقلك معه في رحلته ويسرّ إليك بطويته ويكاشفك بعواطفه ودخيلة أمره، مع تعليق على كل أمر وتمثل بأبيات في كل مناسبة، واستطراد حينما يتاح له الاستطراد، فبينما هو يحدثك عن الآثار إذ بكما تخوضان عصور التاريخ، وخلال كلامه عن الرجال ينشد الأبيات تلو الأبيات، ويمرّ بك من الجغرافية إلى أخلاق الناس إلى أحداث التاريخ، فكأنك حقاً في بستان لم تعبث به أصابع المفسدين ممن يزعمون أنهم مجمّلين، وإنما ترى ماتراه على فطرته المحببه، وسجيته الصافية، فتجد اللذة والفائدة والعلم، في لغة سهلة بسيطة، لا تنطّع فيها ولا تكلّف، مما يجعل هذا الكتاب كما قلت، يصلح لكل الطبقات. لا أقول هذا تملّقاً لصاحب الكتاب، فقد توفي رحمه الله، وإنما هي مزايا رأيتها في الكتاب، وإن لم تكن لغته على درجة من الفصاحة، ولم يكن ساحر البيان، إلا أن هذا في هذه الأيام يكاد يكون ميزة للكتاب أكثر مما هو مأخذ، بالإضافة إلى مايمتاز به عن كثير من أمثاله من الكتب التي تخوض فيما خاض، من «نظافته» مما يشوب أكثرها من أخبار وألفاظ، يجعلها لا تصلح لبعض الطبقات، أما كتابنا هذا فقد استعرضته من أوله إلى آخره. فلم أجد فيه لفظة نابية، ولا طرفاً من المجون، وإن كان يلاحظ عليه بوضوح بعض الحياد «غير الممدوح أحياناً» فلا عصبية لفئة، ولا انقياد لطريق، وإنما ينقل مدح هؤلاء وهجاءهم، وأخباراً عن أولئك والرد عليهم !...

وكتاب كهذا لا بدّ فيه من عثرات وكبوات، وقد نبهنا ما أمكننا إلى مايقع فيه من أوهام تاريخية، أو تحريفات لحوادث، أو شطحات ومخالفات، إلى جانب شروح موجزة بحسب ما يسمح به مثل هذا الكتاب، وتركنا الكثير مما لوشرحناه أو علقنا عليه لأصبح الكتاب أشبه بالحواشي على المتون، ووقعنا فيما منه الناس ينفرون.

وقد جرت إعادة طبعه بناء على تشجيع رجـــل العلم والفضل الشيخ محمد نصيف وجيه الحجاز والمعين على كل مكرمة.

وقد عانينا بعض المشقة في طبع الكتاب، إذ لم نجد إلا نسخة مطبوعة على ورق اصفرّ، أو كان أصفر حين طبع الكتاب قبل إحدى وتسعين سنة؛ ويبلغ عدد

صفحاتها ١٤٢، طول الواحدة منها ١٩,٥ سم وبعرض ١١,٥سم، إلا أن كل صفحة من هذه الصفحات المتواضعة قد رُصّ فيها ثلاثون سطراً، مما يجعلها رغماً عن العناية الواضحة بتصحيحها، عسرة القراءة، لا سيما وأن الأرضة تكاتفت مع العوامل السابقة ، فجرت بين السطور وحفرت على الورق ثقوباً كثيرة ، أضافت نقاطاً إلى الكلام ، وحذفت نقاطاً غيرها ، فشكلت مع تكسر الورق كلاماً غير كلام المؤلف .

وقد كنا على ان نكتفي بطبع الكتاب كما هو ، دون فهارس اليه ، إلا أننا ضننا بما في الكتاب من فوائد كثيرة ، لا تتم الاستفادة منها إلا بتيسير سبيل العثور عليها ، فجشمنا أنفسنا عمل ذلك ، وألحقنا بالكتاب :

فهرساً يشير الى مواضع الآيات الواردة في الكتاب .
« آخر لما مر فيه من أحاديث .
« للكتب الواردة فيه .
« للأمكنة « « .
« للأعلام « « .
« أبجدياً لما حوى من شعر .
« عاماً لمتتبع مراحل الرحلة .

وأشرنا الى بعض التصحيحات والأخطاء مما وقع في الكتاب عند الطبع وما كان منها من أصل الكتاب . والله نسأل ، أن يجعل الكتاب وسيلة للخير ، ودافعاً لتأليف أفضل ، وسبباً لإثابة من أراد الخير بطبعه ونشره والعمل فيه ، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح ، ويلهمنا السداد والرشاد ، ويختم لنا بخاتمة السعادة .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

بيروت ١٨ ذي القعدة ١٣٨٤

محمد سعيد الطنطاوي

ترجمة المؤلف

منقولة من كتاب « خلاصة الأثر في أعيان
القرن الحادي عشر » للمحبي الدمشقي ٤/٢٨

السيد محمد كبريت بن عبدالله بن محمد بن شمس الدين بن أحمد بن قاسم بن شرف الدين بن يحيى بن شرف الدين بن حسين بن فخر الدين بن موسى بن كريم الدين بن محمد ابن ابراهيم بن داود بن محمود بن حسن بن عباس بن علي بن محمد بن حمزة بن أحمد بن جعفر بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

كان من أعجب خلق الله تعالى في الأخذ بأهداب الفنون ، كثير النوادر ، جمّ المناقب ، ولد بالمدينة وبها نشأ وحفظ القرآن واشتغل بالعلوم النقلية والعقلية فقرأ النحو والتصريف والمعاني والبيان على جماعة منهم عبد الملك العصامي ، والشيخ الإمام وجيه الدين عبد الرحمن بن عيسى المرشدي ، وأخذ العلوم الرياضية والحكمية والطبيعية وعلم الحقيقة عن المحقق الكبير عبد الله بن ولي الحضرمي تلميذ القطب العارف بالله تعالى السيد صبغة الله بن روح الله السندي.

ثم توجه إلى الروم في سنة تسع وثلاثين وألف ، وألّف رحلة بديعة سماها « رحلة الشتاء والصيف » ذكر فيها ماوقع له في سفرته هذه من الغرائب ، ودخل دمشق واجتمع فيها بالأستاذ الكبير أيوب بن أحمد ، وأخذ عنه ثم رحل إلى القاهرة ولزم بها الأستاذ محمد بن زين العابدين البكري ، وكان أشار إليه بالأخذ عن بعض السادة الخلوتية شيئاً من علم الأسماء فأخلاه المأخوذ عنه أربعين يوماً لرياضة نفسه ففتح عليه[1] .

(١) إن هذه الخلوة من الخلوات التي يتمسك بها بعض الناس زاعمين أنها من الدين وحقيقتها هوس وجنون وتخريف . وعلم ادريس المذكور : هو زعمهم بأن نبي الله ادريس علمه للناس وهذا من الكذب وإنما هو علم السحر والكهانة وان من آمن بها كفر بما نزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم . (ز)

ثم عاد إلى المدينة واختص بصحبة السيد محمد مكي المدني، فكان لا يفارقه في أغلب أوقاته، وأقام على بث العلم ومراقبة الله تعالى، وألّف تآليف كثيرة بديعة منها كتاب سماه «نصر من الله وفتح قريب» شرح فيه أبياتاً لبعض أفاضل عصره[1]، جمع فيه من كل غريبة ومنها كتاب «الجواهر الثمينة في محاسن المدينة» ومنها «بسط المقال في القيل والقال» في مجلدين وغير ذلك من مفرد ومجموع. وله «ركاز الركاز في المعمى والألغاز» ورسالة سماها «خمائل الأفراح وبلابل الأدواح» تشتمل على أشعار لطيفة. وكتاب «الزنبيل» اختصر فيه كتاب الكشكول للبهاء العاملي وكتاب «العقود الفاخرة في أخبار الدنيا والآخرة» وكتاب «حاطب ليل» كبير جداً وشرح ديوان ابن الفارض سماه «ظل العارض» وكتاب «المطلب الحقير في وصف الغني والفقير» وهو كتاب حسن الوضع عجيب الأسلوب، قال في آخره: وهذا آخر ماجرى به القلم من تسطير هذه الحكم، وربما اشتمل على كلام لا يفهم، ومفهوم لا يكاد يعقل، ومعقول لا يكاد يقبل بحسب ماقيل:

يقولون أقوالاً ولا يفهمونها ولو قيل هاتوا بينوا لم يبينوا

ثم ذكر كلاماً طويل الذيل من هذا القبيل، وأنشد لنفسه في مدح الكتاب قوله:

لله تأليف غدا جامعاً بين النقيضين لمن يعقل
جامعه أغرب في نقله لكنه لم يدر ماينقل

وعكف آخر عمره على مطالعة «الفتوحات المكية» «والفصوص» للشيخ الأكبر ابن عربي، وألّف في وحدة الوجود رسالة، وكان يصدر عنه قولات ربما أنكرها

---

(١) إن شرح أبيات قليلة بمؤلف يذكر فيه كل علم وفن مما افتتن به ادباء ذاك العصر ومن ذلك كتاب «الشرح الجلي على بيتي الموصلي» للشيخ أحمد البربير وهو من مطبوعات المكتب الإسلامي بدمشق.

(٢) وفي كتابه هذا كان حاطب ليل في كل مايتعلق بالعقائد وكثير من الأخبار. (ز)

بعض معاصريه ونسبوه فيها إلى الإلحاد[1] وله أشعار كثيرة حسنة التركيب بينة الجودة فمن مقاطيعه قوله:

هبوا أن ذاك الحسن عني محجب ... أليس برياه سرت نسمة الصبا
إذا رمت أن تبدي مصونات خدره ... فحدث بذاك الحيّ عن ذلك الخبا

وقوله :

يامن تبادي[2] بهجر ماله سبب ... وصدّ عمداً يرى في ذاك تبكيتي
كان هجرك بعد الوصل ياأملي ... أوائل النار في أطراف كبريت[3]

نقله حسن للمصراع الأخير عن موضوعه الذي هوتشبيه البنفسج وهو:

ولاز وردية تزهو بزرقتها ... بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها ... أوائل النار في أطراف كبريت

وقوله :

أرى مطالعتي في الكتب مانفعت ... لعل وجهك يغنيني عن الكتب
فمن رأى وجهك الباهي وبهجته ... فإنه في غنى عن كل مكتتب

وقوله :

ليست على الحر الكريم مشقة ... بأضر من أن لايرى أمثاله
ذاك الغريب وإن يكن في أهله ... وارحمتاه له لما قد ناله

وله :

يالائمي في حب من ... عزّت عليّ ربوعه
خفض عليك وخلني ... أحلى الهوى ممنوعه

---

(١) إن عقيدة وحدة الوجود أشد ضلالا من كل كفر وابشع مافيها أن أصحابها يعدون عند بعضهم من المسلمين وهذه العقيدة تزعم أن الله حال في كل شيء تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً (ز) .

(٢) كذا الأصل ولعلها : تمادى .

(٣) تورية يشير بها الى لقبه .

وقـــال يفتخر :

نشأت بفضل الله في ظل دوحـــــة سمت بنبيّ كنت من بعض عترتـــه
فإن شئت في سفح العوالي وان أشأ بدار الذي طابت وطالت بهجرتـــه
فهاتيك دار للحبيب وهـــــــذه بها منزهي ياصاح من حول حجرته

وقال في تفضيل العـــاليـــة :

أراك تغالي في العوالي وفي قبـــــا وأنت على وهم الخيـــال تعوّل
إلى كم ترى تهوى الذي أنت سائر إلى غيره إذ أنت عنه تحوّل
فكن سائراً في لامقام فـــإنمـــــا تقلب من شأن لشأن وترحـــل

العالية أرض ذات رياض فائقة ، قال في «الوفاء» : هي من المدينة ماكان في جهة قبلتهامن قباءوغيرها على ميل فأكثر وأقصاها عمارة على ثلاثة أميال وأربعة إلى ثمانية أوستة على الخلاف في ذلك انتهى و وجه التسمية جلي وذلك لأن السيول تنحدر من تلك النواحي العالية إلى سوافل المدينة فعلى ذلك يقال نزلنا من العوالي إلى المدينة وطلعنا إلى العوالي وله في مدحها قطع كثيرة غير هذه فمنها قوله :

فضل العوالي بيّنٌ ولأهلهـــا فضل قـــديم نوره يتهلـــل
من لم يقل انّ الفضيلـــــة طينت أرض العوالي وهو حق يقبـــل
إني قضيت بفضلهـــا وأقـــول في وادي قبـــا الفضل الذي لا يجهل

ولـــه :

إذا كنت في أرض العوالي تشوّقت لأرض قبـــا نفسي وفيهـــا المؤمل
ولو كنت فيها قالت النفس ليت لي بـــأرض العوالي ياخليلي منزل
فياليت أني كنت شخصين فيهما وماليت في التحقيـــق إلا تعلـــل

وله من أبيات قالها وهو بالروم يتشوّق إلى معاهده:

ما أطيب الأيـــام فيها تنقضي والعين قد قرت بوصل حبيبهـــا
ما العيش إلا في حماها ليت لي مأوى ولو في سفحها ورحيبهـــا

وله وهي من لطائفه:

الحمـــد لله عـــلى ما أرى من ضيعتي مابين هـــذا الورى
صيرني الدهر إلى حـــــالة يرثى لها الشامت مما يرى
بدّلت من بعد الرخا شدّة وبعـــد خبز البيت خبز الشرا
وبعـــد سكني منزل مبهج سكنت بيتاً من بيوت الـــكرى
ولو تحققت الـــذي نالني لارتفـــع الشك وزال المرا

ورأيت في كتابه «الجواهر» قال: مررت في رحلتي ببعض قرى الروم فرأيت قبراً عليه بنيان قد أظهرت فيه الحكمة زخارف صنعة البنا، وعلى رأسه مكتوب:

وماينفع الانسان بنيـــان قبره إذا كان فيـــه جسمه يتهـــدّم

وذكره ابن معصوم فقال في وصفه: مفرد جامع وأديب ضوء أدبه لامع نافت شمائله على أنفاس الشمول والشمال، وقال من ظرفه وأدبه بجنتين عن يمين وشمال، كان لطيف قشرة العشرة، تحسد تباشير الصباح بشره، لاتمل ندماؤه مجالسته ولا تسأم أصحابه مؤانسته، إلى فصاحة ولسن، وتجمل بكل خلق حسن، وتقنع بقناع القناعة والكفاف، واشتمال بأبراد الصون والعفاف، سلك مسلك من نبذ الدنيا وراء ظهره ورضي منها بمسالمة خطوب دهره، ورام انتحال مذهب أهل الحال فتكلم بعضهم في اعتقاده ونقل عنه فلتات أشعرت بخفي إلحاده، وكانت له اليد الطولى في جميع نوادر الأدب والنسل إلى تقييد شوارد النكت من كل حدب، وله في ذلك مؤلفات منها «محك الدهر» وكتاب «المباهج» و«رشح البال بشرح البال» وغير ذلك...

إلا أنه لم يكن له في سائر العلوم رسوخ قدم معلوم، أخبرني الوالد بسماعه عنه أنه أستاذه خالف في تعليمه النظام وطفر به طفرة النظام فنقله من الاجرومية إلى الكشاف وأبدله النشاف من الارتشاف، وله شعر انتظم به في سلك من نظم له ثم أنشد له قوله:

وإذا جلست مع الرجال وأشرقت في جوّ باطنك المعاني الشرد
فاحذر مناظرة الجهول فربما تغتاظ أنت ويستفيد فيحسد

وقوله موريا في المولى عبد الرحمن العشاقي:

قد قلت للمجد من تهوى تواصله فكلنا لك ذو وجد وأشواق
فقال لي بلسان غير مقتدر لا أشتهي أن أوافي غير عشاقي

انتهى. وكانت ولادته في سنة اثنتي عشرة بعد الألف، وتوفي بعد الظهر عشري شهر رمضان سنة سبعين وألف.

وصلى عليه السيد العارف بالله تعالى محمد باعلوي، ودفن شمالي القبة المطهرة، قبة سيدنا ابراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم ببقيع الغرقد رحمه الله[1].

(١) هذا في زمن الأشراف حيث كانت قباب وأما الان فقد عاد البقيع إلى ماكان عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعهد الصحابة والتابعين.